

# دلالة التاريخ

وفوق دلالة الفطرة ، ودلالة الكون ، ودلالة الأخلاق ،  
ودلالة الوحي ، هناك دلالة التاريخ .

فالذي يستقرئ التاريخ منذ عرف الإنسان تاريخاً - يرى  
أن الجماعات البشرية في جميع الأقاليم حارة وباردة ، ومن  
مختلف الأجناس والألوان ، بيضاء وسوداء ، وفي شتى  
المستويات بداءة ومتحضرين ، ومن كل الطبقات أغنياء  
وفقراء ، وفي جميع العصور قديمها ووسيطها وحديثها ،  
هؤلاء الجماعات المتفرقة عرفوا الإيمان بالله ، على صورة  
من الصور ، وقد ذكرنا كلمة المؤرخ « بلوتارك » : إنه لم  
توجد أبداً طوال أزمنة التاريخ مدينة بلا معابد ، وإن  
وجدت مدن بلا قلاع أو حصون ، أو قصور أو غيرها .  
كما ذكرنا كلمة الفيلسوف الفرنسي « برجسون » : إنه قد  
وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون  
وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة .

أجل ، لقد اعتقدت كل تلك الجماعات البشرية بوجود إله يستحق العبادة والتعظيم ، وكان لهذه العقيدة أثرها في حياتهم وسلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم . فهل أجمع النوع الإنساني في سائر أجياله على غير حقيقة ؟  
إن الذي يحترم نوع الإنسان ، ويحترم نتائج التاريخ ، ويحترم عقله هو ، لا بد أن يُسَلِّمَ بأن هذا الإجماع التاريخي دليل يؤكد تلك الحقيقة الكبرى ، وهى وجود الله سبحانه .

وانحراف بعض الناس أو أكثرهم في تصور الألوهية لا ينفي تلك الحقيقة بل يؤكدها ، فإن هؤلاء من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها ، وخلعوا كثيراً من صفاتها على المخلوقات التي اعتبروها مظهراً لتجلي الإله ، أو رمزاً له ، أو توهموها من نسله أو نحو ذلك من الأوهام! ولهذا كانت مهمة الأنبياء تقويم هذا الانحراف ، وتصحيح الإيمان ، وتخليصه من شوائب الوثنية وخرافاتهما .

ولا عجب أن يحثنا القرآن على السير في الأرض ، والنظر في تاريخ الغابرين ، والاعتبار بمصارع المكذِّبين ،

والتأمل في آثارهم بعقول بصيرة ، وقلوب مفتوحة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ (محمد: ١٠) ، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (الأنعام: ١١) ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

الحق أن تجارب التاريخ - كتجارب الواقع أيضاً - كلها تنطق وتشهد بأصالة الإيمان بوجود الله تعالى ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ، ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ، ليستقر ويتماسك ويرقى . يقول الأستاذ العقاد :

« إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم ، أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه ، في علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه . »

«ويقرر لنا التاريخ : أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأمم ، وإنما تتفاوت فيه القوة لمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة» .

« هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام» .

« أما الدين فمرجه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماضٍ أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تحصى في القدم ، وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى ، وغايتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور» .

«ومن أدلة الواقع على أصالة الدين ، أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التي لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن مكين».

«وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطل الضمير ، مضطرب الشعور يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه».

«فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها ، وشجرة مجتثة من أصولها».

«وقلَّ أن ترى إنساناً معطل الضمير ، على شيء من القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، إذا حلت العقيدة في وجدانه محل التعطيل والحيرة»<sup>(١)</sup>.

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٥، ١٦ .

# الحجب التي تحوّل بين الناس وبين الله

لعل سائلاً يسأل فيقول :

إذا كانت الدلائل على وجود الله بهذا الوضوح ، وهذه القوة ، وهذه الكثرة ، فما لنا نرى بعض الناس يجحدون بالله ولا يؤمنون به ؟ ويقولون : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (الجمالية: ٢٤).

والجواب : إن هناك حجباً كثيفة تحوّل بين بعض البشر ، وبين معرفة الله ، والإيمان به . وهذه الحجب مما كسبت أيدي الناس ، لا من فطرة الله .

## ١- الانحصار في دائرة الحس :

وأول هذه الحجب : هو الانحصار في الماديات والمحسوسات التي يعيش فيها الأطفال ، ولا يعرفون غيرها .  
فهؤلاء الناس أشبه بالأطفال في عقولهم وتفكيرهم .  
إنهم يقولون : إذا كان الله موجوداً - كما يقول المؤمنون -

فلماذا لا نراه بأعيننا ، ولا نُدرکه بحواسنا ، كما نرى ونُدرك  
سائر الموجودات ؟ وهل يسوغ لنا أن نُؤمن بما لا نراه ؟  
والجواب : أن حصر الموجودات فيما يُرى ويُحس غير  
صحيح ، فكم من موجودات لا تُحس ولا تُرى ، كما أن  
حصر وسائل المعرفة في الإدراك الحسي غير صحيح  
كذلك . فالإنسان يعرف ويدرك عن طريق البداهة والفترة ،  
وعن طريق العقل والفكر ، وعن طريق البصيرة والإلهام ،  
كما يعرف ويدرك عن طريق الحس والرؤية .

إن علماء الفلك الآن يُقدرون وجود كواكب ، بيننا وبينها  
ملايين السنين الضوئية ، وقدروا مواقعها والأبعاد بين  
بعضها وبعض ، لأن وجودها في المواقع التي حدّدها ،  
يفسر لهم آثاراً وظواهر معينة ، في حركة الكواكب التي  
رصدوها ، ويستدلون بما رأوه على ما لم يروه ، ويتبين  
بالملاحظات العلمية صحة الفرض الذي فرضوه .

فهل يلام هؤلاء العلماء على إيمانهم بما لم يروه ولم  
يحسوه مع أنهم اهتموا إليه بالمنطق الرياضي الذي يعتمد  
على الأرقام لا على الأوهام ؟

إن هؤلاء العلماء قد اعتمدوا على منطق بسيط ولكنه صادق ، هو الاستدلال بالأثر على المؤثر ، فهم قد عرفوا الكواكب البعيدة بآثارها لا بذواتها ، وعلى هذا النهج نفسه درس العلماء الطبيعيون « الذرة » واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة مع إنهم لم يروا الذرة حتى الآن ، كل ما انتهوا إليه بوسائلهم الألكترونية الجبارة أنهم استطاعوا أن يروا ظلها أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه .

فكيف نُسَلِّم بهذا المنطق - منطق الاستدلال بالآثار - ونستخدمه في علوم الطبيعة والفلك ثم ننكره في معرفة الخالق الأعلى ؟

يقول الدكتور الباحثة « دى نوى » :

« كثير من الأذكىاء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله ، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه ، على الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي ، لا يلزمه أن يتصور « الله » إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب ، فإن التصور في كلا الحالين ناقص وباطل .

وليس الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادي . وإنه مع هذا  
لأثبت في آثاره من قطعة الخشب»<sup>(١)</sup>.

## ٢- الغفلة :

إن ثاني هذه الحُجُب هو الغفلة ، الغفلة التي تغشى  
بعض الناس ، فتصيب أفكارهم بالشلل وقلوبهم بالعقم ،  
وتعطل المعرفة والإدراك لديهم ، فكل همهم ملء البطون  
وإشباع الشهوات والتمتع بما يتمتع به الأنعام ، وهؤلاء هم  
حطب جهنم ووقود النار ، وهم الذين قال الله عنهم :  
﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ  
قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ  
أُذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ  
أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وإنما كانوا أضل من الأنعام ، لأن الأنعام لم تمنح من  
العقل والمواهب والنعمة ما منحوا ، كما أن الأنعام تؤدي  
مهمتها التي خلقت لها ولا تتمرد عليها ، من درّ ونسل ،

---

(١) «عقائد المفكرين في القرن العشرين» للعقاد .

أو صوف ولحم ، أو ركوب وحمل . فإذا غفل الإنسان عن ربه الذي خُلِقَ لمعرفته وعبادته وخلافته في أرضه - فهو أسوأ منها منزلة وأضل سبيلاً .

### ٣- التقليد :

والحجاب الثالث هو التقليد : الذي يُفقد الإنسان شخصيته ، ويجعله يفكر بعقل غيره ، فإذا نشأ في بيئة كافرة ملحدة ، أو تتلمذ على أناس ملحدين ، سلم إليهم زمام نفسه ، وعاش معهم ذليلاً وإمعة ، يؤمن بما آمنوا ، ويكفر بما كفروا ، فمن الناس من يُقلد سلفه وآبائه ، ومنهم من يُقلد كبراءه وزعماءه ، ومنهم من يُقلد أساتذته ومعلميه ، وكل هذه الألوان من التقليد حجب وسدود ، تحول بين الناس وبين الإيمان بالحق . ولهذا حمل القرآن عليها وعلى أصحابها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ

عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ (البقرة: ١٧٠، ١٧١) ويعرض لنا حال الزعماء ومقلديهم يوم القيامة فيقول: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ وقال الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿ (البقرة: ١٦٦، ١٦٧).

#### ٤- المكابرة :

أما رابع هذه الحُجُب وهو أكثفها وأغلظها فهو المكابرة والعناد . إن دلالة الفطرة ، ودلالة الكون ، ودلالة الضمير ، ودلالة الوحي ، ودلالة التاريخ ، كلها وأضعافها وأضعاف يسدُّون آذانهم لئلا يسمِعوا صوت الحق ، ويغشون أعينهم لئلا ترى النور ، ويوصدون قلوبهم كيلا ينفذ إليها شعاع من الهدى . إنهم يجادلون ليشوشوا لا ليفهموا ، وليغلبوا لا ليقنعوا ، إنهم كما وصفهم الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴾ ثانياً عَطَفَهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ (الحج: ٨، ٩).

إن المعاند المتعصب لا يقنعه ألف دليل ودليل ، ولن يهتدي إلى الحق ولو برؤية العين ، ولمس اليد ، وإدراك الحس . وقد طلب المشركون الجاحدون برسالة محمد ﷺ أن يُنزل عليهم كتاباً من السماء يشهد له بالرسالة ، أو يصعدوا هم إلى السماء ليسمعوا شهادة الملائكة الأعلى بنبوته ، فردَّ القرآن الكريم على تعنتهم وسخف مقترحاتهم ، وبين دخيلة أنفسهم بقوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ٧). وقال في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: ١٤، ١٥)

حتى لمس اليد ، ومشاهدة العين ، يستطيع المتعصب المكابر أن يماري فيهما ، وأن يتهم يده التي لمست ، وعينه التي أبصرت ، ويدعي أنه كان مخدراً ، أو مسحوراً ، أو ما شاء له عناده وهواه . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١).

وما أبلغ القرآن وهو يجعل الآيات المبثوثة في النفس والآفاق عبرة لأصحاب العقول والقلوب وحدهم لا لغيرهم :  
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠) ، أو ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٣) ذلك لأن المعاند المكابر لا يتفكر ولا يعقل ولا يذكر ولا يسمع ، ومن كان هذا حاله فليس يهتدى إذن أبداً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧).

إن ألف دليل ودليل لا تكفي لإقناع من « جمداً » عقله ، وأغلق قلبه ، وأصر على الجحود والإنكار ، وكل شيء في الأرض أو في السماء مقنع لمن يريد أن يقتنع ، وهاد لمن يريد أن يهتدي .

فيا عجباً كيف يُعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة	وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد

\* \* \*